عند قدمى رمسيس

سعيد بكر

لفظ مرسال القطار القادم من جوف الصعيد .. قذفه أمام رمسيس .. ولفث أبخرته السوداء في وجه رمسيس في حنق وغضب. انتفضت الأبخرة الحمقاء تزكم أنف الملك المختال .. فسعل في حدة ولعن اليوم الذى أسره فيه الجيليون .. وصاح في ضيق في السماء الشاسعة من فوق رأسه .. نفرتاري .. منذ وقوفه منتصباً أمام هذه الأشياء القبيحة والأسوار التي يبنيها الجيليون من حوله خشية أن يفر إلى بلاده البعيدة .. يختال أمام وجهه وفي السماء العريضة المثقلة بالغبار وصياح القطارات .. وجه نفرتاري الحبيب .. وصدرها الدافئ .. أما يعرف هؤلاء الجيليون أنه لا يجسر ملك على الهروب من أيدى الأعداء؟ .. كيف يهرب ويسقط تاريخه القديم وتتصدع أسطورته؟ .. فعل أن التعس سومهم ولأبق منتصباً هنا يتفرجون على في بلاهة .. لن أهتم بهم .. هؤلاء الجيليين الأغبياء.

ويتأمل مرسال رمسيس المختال وينثر الماء المتدفق من بين أصابعه يبلل على وجهه رذاذاً رطباً .. انتعش مرسال وعرض وجهه فاغراً فاه في بلاهة ليتلقى دفق الماء على وجهه .. كان يعاني من أبخرة القطار التي حلقت حول عنقه ووجهه وأسفل حاجبيه .. أشياء رثة .. لكن قلبه في الصدر كان يترجرج في غبطة مثالية .. مصر .. مصر أم الدنيا .. وتصب له حكايات الأصدقاء القديمة عن مصر وروعتها وغرابتها .. وكم تمنى أن يأتي إلى مصر ليتم تعليمه العالي.

عادت تلك الغصة الحادة تشق حلقه .. تصاحبه كلما يتذكر انقطاعه عن مواصلة دراسته منذ وفاة والده ووراثته لأخوة صغار وبضعة قراريط من الأرض .. الآن يأتيها عليلاً طالباً الاستشفاء .. وتذكر الألم فأشاح بوجهه عن عنق رمسيس الذى راح يتفحص فيه النظر بعينين متآكلتين .. وحاول رمسيس أن يتذكر في أى مكان رأى هذا الوجه .. أما مرسال فكان يعرف رمسيس .. لم يتحير .. ورأى نفسه منتصباً في شموخ ومن بين أصابعه يندفع رشاش الماء الذى يأخذه الريح بعيداً .. ولكن حينما أراد مرسال إلى الخلف ليشق طريقه تعثرت قدماه وأحس بهبوط .. وعاوده ذلك الألم القاتل .. وتمنى أن يجد الشفاء .. وتهاوت إليه كلمات أمه وسط صخب العربات وأبواق السيارات.

- مع السلامة .. وتعد إلينا معافى.

كان دائماً يرى سيل الدماء المتدفق بين البول الأصفر .. ويرى روحه تتسرب كل يوم من بين فخذيه ويحس في ألم .. سأموت قريباً في يوم ما .. لم يعرف أى الطرق يسلك .. كلها مزدحمة زاخرة بالعربات والسيارات والأجساد اللزجة .. أشار إلى أحد العابرين .. لم يعره التفاتاً .. أمسك بذراع أخرى لكنه كان متعجلاً فجذب ذراعه وجرحه في عنف وواصل طريقه .. كاد الدوار يأخذه من أحشائه .. جذبه وعيد وقفز فوق الطوار .. تنبه .. وتشهد في خفوت .. لم تعد .. جذب أحدهم في عنف وتساءل:

- أي الطرق تؤدي إلى مركز مكافحة البلهارسيا؟

تكلم الرجل كثيراً .. أشار هنا وهناك .. لم يفهم مرسال ولكنه على امتداد ذراع الرجل تخبط في الأجساد .. ودفعه أحدهم أسفل الطوار .. عاد إليه من جديد .. وشعر بالاختناق .. فرفع ذراعه الحجرية تمسح وجهه .. ورفع ساقه ليخفف عنها ثقل الجسد العالي .. وتأمل الميدان الزاخر .. تنبه .. وصاح في السماء بصوت عال:

- نفرتاري .. لقد أسرني الجيليون.

لم يهتم به أحد .. ولم يسمع نحيبه المتصاعد نحو السماء .. وطوى الألم بين جوانحه وشعر بشئ يسرى من بين فخذيه .. أهى دماء جديدة؟ ونظر إلى جلبابه .. خشى أن يكون قد لوث .. فأم ودس يده في جيب جلبابه ورفع بالجلباب إلى الأمام في خفية عن عيون الناس .. وعاد يسأل شرطياً يقف عند ناصية الطوار:

- مركز مكافحة البلهارسيا

قاطعه الشرطى في ثقة .. ولوى وجهه بعد أن دفع بذراعه على امتداد الشارع .. وواصل طريقه .. سلطت الشمس فوق رأسه .. أفنت جسده فازدادت آلامه وطأتها على مصلى .. ورفع يده ليخفف سيل العرق المنساب والمتسلل .. حول رأسه .. وراح يتأمل الميدان من جديد واقفاً فوق رأسه بمظلة .. ربما إلى القرص الأصفر في جوفه .. ويتوسل إلى آمون أن يخفف عنه حدة ناره .. لم يهتم آمون .. فألقى بصره تحت قدميه .. رأى النيل المتدفق من بين أصابعه .. فتهلل .. أيها الإله العظيم .. جثا على ركبتيه .. نظر إلى الوجه الحجرى المنعكس فوق سطح الماء .. وصلى في ضراعة .. ولكنه اشتاق إلى أن يغسل الجسد المتعب من عناء الأسر في مياه النيل العذب .. رفع قدمه ودس بها في بطن الماء ..

كان الماء دافئاً هو الآخر .. تأفف ولم يجد وسعاً فهبط بجسده حتى القاع ولكن حين اقترب أنفه من الماء .. تصاعدت رائحة كريهة إلى أنفه والتمس في الماء رائحة عفنة .. كان الماء دهني الملمس .. فصاح في غضب:

نفرتاري .. لقد لوث الجيليون النيل العظيم.

رغم هذا ترطب الجسد الحجرى العالي وارتوى قلبه .. ولكنه تمنى أن يزدرد قطرات من العرقسوس الطيب قبل أن يواصل سيره .. فقد أحس بالعطش .. توقف الرجل ليصب له كوباً من العرقسوس .. ازدرده عن آخره .. وشعر بارتياح .. وأوقف سائراً يسأل في عجل:

- مركز مكافحة البلهارسيا؟

وتهادى إليه صوت طبيب القرية الرحيم.

- لقد استفحل المرض .. لا علاج لك لدينا.

فهمس في خفوت

- أهي النهاية؟

فقال الطبيب

- علاجك في مصر.

وقالت الأم

- اقلع قيراطين من الأرض.

فتمتم في ألم

- الأرض كل ما نملك الآن

- أنت كل شئ لدينا

وهي تشيعه .. صاحت ودموع تترجرج في عينيها:

- مع السلامة يا ولدي .. فتعد لنا معافى.

ولج الباب الحديدى .. سأل أحد الرجال .. أين له أوراق علاجه القديمة فسمح له بالدخول أمام الطبيب.

قال الطبيب وهو يتطلع إلى الأوراق

- دائماً تأتون إلينا بعد قضاء الأمر

فقال مرسال في هلع

- أليس لديكم علاج لى؟

- قال الطبيب في ثقة:

- لابد أن نقوم أولاً بفحصك

وأخذوا منه عينات من البول والدم وتطلعوا إلى الخارج من جديد .. تطلعت الطرقات بوجهه العظيم الأصفر .. تخبط في الأجساد .. فعاد بآلامه حتى تلك ووجد من المنتصب الأحمق ملاذاً فأسند رأسه وراح يغط في النوم قليلاً .. رمسيس .. بعد رمسيس .. نفض عن جسده الأزق فهبط من فوق الأحمق .. أزاح جسد مرسال عن طريقه .. ونزل إلى الطريق يجد لقدميه مكاناً .. تدافع بالمناكب وشق له طريقاً وسط الأجساد المتشددة .. نافض من الأجساد بأجساد الجيليين .. الأعداء .. ولكن لم يحفلوا به .. لم يكد يخطو خطوة واحدة حتى سدت الشرائط طريقه .. عاد إلى الخلف .. أكد أن أسره حقيقى .. فهتف في غيظ هؤلاء الجبناء نقضوا العهد .. كيف سروا الحرب على العظيمة؟ .. كيف أسروني وطارده الحنين إلى وجه الحبيب .. فأحس بألم يشق صدره وراح يدعو آمون أن ينقذه من الجيليين .. ترى هل أسروا نفرتاري أيضاً؟ .. وصاح في غضب في الميدان .. نفرتاري .. لم يعره التفاتاً .. وخطوات ثابتة .. هبط نحو الشرطى القريب من الميدان .. ناداه غاضباً:

- أيها الحقير أين نفرتاري حبيبتي

التاع الشرطى بوجهه .. ولوح بيده في غضب

- عد إلى مكانك ولا تربك الميدان.

- هل أسروا زوجتي نفرتاري؟

قال الشرطى في صوت آمر

- عد إلى مكانك وإلا حررت محضراً لإرباكك المرور

على مضض عاد رمسيس .. لم مكاناً يسع جسده العالي سوى الحجرى .. عاد وأزاح مرسال بقدمه .. وألقى فوق المكعب يتأمل سطح النيل العفن .. ولكنه وصرخ في وجه آمون الوردى أن إلى نفرتاري الحبيبة.

حينما هبط الليل .. عاودت مرسال آلامه الحادة .. ونزف دماً غزيراً سرواله .. ولكنه لم يستطع أن يكتم صرخاته .. خوفاً من أن ينتبه أحد .. كان الميدان قد خلت الأقدام والأضواء .. وانطفأت الصفة بالميدان عيونها الكابية وأسدل ظلام كثيف .. لم

الأضواء الصفراء الباهتة . عوى مرة أخرى وتأكد من أن الدماء قد شقت لها طريقًا فوق فخذيه . طوى آلامه من جديد ، وتمسح بالكعب الأحمر . هدأت الآلام قليلاً . وجعل يتطلع إلى سرواله الداخلي . كان ملوثًا . كان عليه أن يعطف ثيابه فليس من المعقول أن يسير في الطرقات حيا تبرح الشمس وثيابه ملوثة بالبقع الحمراء . اتفق دهشة لحاله . وأسعى الطرقات المؤرق التي يعكس الضوء الأصفر الباهت .

وعندما أوغل الليل خلع ثيابه .. وفي جوف سقطًا في الماء . أخذت ملوثة علونا . ووجدة قليل متسرعين خلفك فيه . سحبه الشرطي لوسل مرسال إليه في حجل عرض عليه ثيابه الملوثة بالدماء . لم يتم الشرطي ولكنه لم يتركه إلى حاله حتى أخذ كل ما في جيب مرسال .

في الصباح قال الطبيب

- بعد إليا عدك

ثم مرسال شفتيه . قال

- لا أستطيع البقاء أكثر من ذلك

وهتف رمسيس في القضاء :

- أيها الجليلون الخبثاء .. أطلقوا سراحي

قال الطبيب

- في صراحة . ليس لديه علاج لك . علاجك في الخارج

وعت مرسال وهتف في هلع

- وكيف أذهب إلى الخارج ؟

طاردة تساؤله الحائر من جديد

- هل الشفاء مأمول ؟

قال الطبيب

- الشفاء بيد الله

وترنح رمسيس لأمواج التعب فوق رأسه قليلاً . وصاح في غضب

- المرارى .. أطلق سراحي

وسحب مرسال قدميه في إعياء إلى ملاذه تحت قدمي الملك الخالد . تذكر رمسيس من ذلك الذي يجرى تحت قدميه كل ليلة .. فأراحه بقدميه بعيدًا . تطوح مرسال وسقط بعيدًا عن قدميه . عاد مرسال ونومه تراجعه مطاردة بين جنبي عليلي تلك الآلام . وتساءل في حيرة .. كم من الدماء رفعت يا مرسال ؟ هل بقي من العمر شيء ؟ .. وتمثل له وجه أمه .. وتمناها له بالشفاء .. وتذكر اليوم الذي وطئت فيه قدماه مصر .. تنهد .. وصرخ في غضب :

- أنا رمسيس الصامت .. ألا تتكلم

تمتم رمسيس في ضيق . وصاح في مرسال .

- أيها الرجل .. أنت تلقي مضجعي

قال مرسال للملك الخالد :

- أنت لم تشعر بألمي ..

ثم لوح بيده في وجه رمسيس حانقًا

- لقد ماتت قلوب الأطباء يامليكي الصامت

فقال رمسيس في صوت آمر

- إن طاعة الملوك واجبة

قال مرسال في حنق .

- علاجي في الخارج .. هل تسمح لي بالخروج ؟

صاح رمسيس

- هل أسرة المرارى وأرسلتموها سبة إلى الخارج ؟

تمتم مرسال :

- هل رأيت الدماء تنزف من بين فخذيك ؟

نظر رمسيس مابين فخذيه وتساءل في دهشة :

- الدماء ؟

- وأيضًا الموت

قال رمسيس :

- إن مت فسآمر الأطباء بتحنيط جثتك

- مافائدة التحنيط بعد الموت ؟

- إنه الخلود

زمجر مرسال وقال للملك الخالد

- الموت .. إنه الخراب .

وتذكر أمه وأخوته الصغار وبقعة الفرانيط .. ولاذ رمسيس بصمت . وراح مرسال يشق السكون بصرخات الألم مصرخات التناعة . وفكر في العودة إلى قريته .. وقال في نفسه .. إن كان الموت محتومًا فلأمت بين أحضان قريتي .. ولكن الشرطي أخذ كل ما تملك .. وفكر في وسيلة للعودة

قبيل الفجر رحمت مرسال الآلام رفق دعًا قويًا .. واستشعر طعم الدماء في فمه .. وأدرك أنه الموت المحتوم . فكر رمسيس في قلمه .. تململ رمسيس في علوته .. ونظر إليه هتف

- مالك ؟

صاح مرسال في ألم

- إني أحتضر

وانتفض رمسيس لأول أن يراقب بجسده .. وأن يسلب روحه دون ألم ورنا مرسال إلى الهذيان .. حدق في الماء الساكن أمامه ولفظ أنفاسه .. نظر رمسيس .. أدرك أنه مات .. فبكى بكاء حقيقيًا

كانت دموع رمسيس صادقة وثقلة .. ليست دمعة الملوك ولا تسمح فيها البلهارسيا □